اوراق خاصة

غسان كنفاني

يوميات ١٩٥٩-١٩٦٠

هذه الأوراق

تنشر « الكرمل » مختارات من دفتر يوميات كتبه الروائي الفلسطيني الكبير الشهيد غسان كنفاني بين عامي ١٩٥٩ و ١٩٦٠ خلال عمله في الكويت .

وهذه الاوراق الشخصية ، هي نوع أدبي ، نفتقده في حياتنا الأدبية العربية المعاصرة ، والشكر يتوجه الى السيدة آني زوجة الشهيد والى مؤسسة غسان كنفاني الثقافية الى الاستاذ فاروق غندور ، الذين سمحوا لنا بنشر هذه المادة الخاصة ، والتي لم يسبق لها النشر، والتي تضيء الكثير من جوانب حياة وابداع كنفاني في شبابه المبكر .

٣١ /١٢/ ١٩٥٩

« ... إن الضباب الأسود غير موجود في الطبيعة ، ولكن من ذا الذي يستطيع ان يؤكد انه ليس ابعث على الراحة من الضباب الطبيعي الذي لا لون له ؟ ؟ »

٢ /٣/ ١٩٦٠

« ان يسقط الانسان من السماء بلا مظلة ... ثم يمضي طريقه الى الارض مفكرا ... شيء لا يحتمل ... »

١ /١ /١٩٦٠

... ليلة امس قررت ان ابدأ من جديد ..

هذه اليوميات عمل كريه ، ولكنه ضروري كالحياة نفسها ..

اتى القرار بسرعة وببساطة ، كانت الساعة تمام الثانية عشرة ، اي اننا كنا ننتقل من عام قديم الى عام جديد .. كانت الغرفة صامتة ، تعبق برائحة وحدة لا حد لها .. عميقة حتى العظم ، موحشة كأنها العدم ذاته .. وبدا كل شيء تافها لا قيمة له ، فقررت ان اكتب شيئا ... لكنني فضلت ، لحظتذاك ، ان ابكي ... ومن الغريب انني فعلت ذلك ببساطة ، ودون حرج ، وحين مسحت دمعة او دمعتين كنت كمن يهيل التراب على جزء آخر من جسد ميت سلفا ندعوه حياتنا ...

وهأنذا اكتب من جديد ... يوميات كريهة ، لحياة كريهة تنتهي بموت كريه ، مستشعرا كم انا مجبر على ان اكتب ، كما أنا مجبر على ان اعيش ، كما انا مجبر على ان اموت ..

٤ /١ /١٩٦٠

إنني مريض ، نصف حي يكافح من أجل ان يتمتع بهذا النصف كما يتمتع كل إنسان بحياته كاملة .. وكل المحاولات التي افتعلها لكي انسى هذه البديهية تقودني من جديد لكي أواجهها .. وبصورة أمر

لقد توصلت الآن الى ان اؤمن بأن عنصر المشاركة يكاد يكون معدوما بين الناس ... إنهم يحسون انك تتألم ولكنهم لا يعرفون كم تتألم ، وليسوا على استعداد ابدا لأن ينسوا سعادتهم الخاصة من أجل ان يشاركوا الألم ... وعلى هذا فعلينا ان نتألم بيننا وبين انفسنا .. وان نواجه الموت كما يواجه واحد من الناس الآخرين نكتة يومية ... وهذا يجعل من الانسان عالما بلا أبعاد ، ولكنه في الآن ذاته ، عالم مغلق على ذاته .

في الحقيقة إن المخرج الوحيد من هذه الدوامة الموحلة ، هو ان يؤمن المرء بأن العطاء هو المقبول فقط لدى إنسان الحضارة ... وأن الأخذ عمل غير مرغوب فيه ... أن يعيش الانسان باذلا نفسه هو المقابل ، ولا مقابل سواه ... انني احاول الآن ان

اصل الى هذا الايمان بطريقة من الطرق ، أو أن الحياة تصبح ـ بلا هذا الايمان ـ شيئا لا يحتمل على الاطلاق ...

دفعني لأكتب هذا الكلام .. جرح سببته الحقنة اليومية هذا الصباح .. واعتقد انه ما زال ينزف الى الآن .. لو قلت لانسان ما انني أتألم منه لاعتبره شيئا يشبه النكتة الطريفة .. ويرددها على هذا الأساس ، متسائلا : « كيف يستطيع انسان ان يجرح نفسه ؟ لا شك انها تجربة طريفة !! » او انه على احسن الاحتمالات سوف يقول : « إنه يتألم !.. » ، ويغير الموضوع .. اما بالنسبة لي فهي تعني ، وسوف تبقى تعني كل يوم ، انني اريق جزءا من احتمالي ، وانسانيتي ، وسعادتي من أجل ان اعيش ... وانه لثمن باهظ حتما ... أن يشتري الانسان حياته اليومية بالألم ... والقرف ... والنكتة ... إنه ثمن باهظ بلا شك ... ان يشتري حياته اليومية بموت يومي ...

١٥ /١/ ١٩٦٠

أفكر في كتابة قصتين ، الاولى قصة إنسان مخذول ، خذلته القيمة التي اعتقد انها مقياس الحياة الوحيد واذا هي قيم لا تعتبر في عالم الحضارة المعاصر ... انني لم اتوصل بعد الى اصطياد الحادثة الملائمة . ولكنني احتاج ان اصل منها الى التعبير عن الانخذال الكامل الذي يحسه انسان صفع بشيء آمن به . فاذا به عند الآخرين لا يساوي شيئا ، وليس يهمني على للاطلاق ان يكون هذا الايمان خطأ او صوابا . يهمني فقط انه ايمان يحمل على دعائمه كل طموح ذلك الانسان ، ايمان مبثوث في عروقه مع امه . جنبا الى جنب .

اما القصة الثانية فتدور حول نفس المحور .. ولقد سمعتها اليوم من صديق رواها ببساطة حرقت محجري ... اترى استطيع ان انقلها ببساطة الى محاجر الآخرين ، إنها قصة مثقف اضاع ذراعه في اعتدإ غادر ... وحينما خرج من المستشفى (...) وجد نفسه مرفوضا من قبل الحياة التي لا تعترف بالضعف ... انني لم اصل بعد إلى صياغة جميع تفاصيل هذه القصة ولكنني اشعر اني استطيع ان افهمها باخلاص وصدق ... بل وان أعانيها .

لقد كتبت الي إذن ، تقول ببساطة ، انني اصبحت مركوما في ماضي ، لا علاقة لها به .. لقد نسيت كل الحب الذي وهبتها خلال عامين كاملين ... ونسيت المستقبل الذي بنيناه في كل كلمة ... مركوما في ماض لا علاقة لها به .. اقف في وجه عاصفة اطمع في شيء كبير لن اناله على الاطلاق .. كتبت ذلك ببساطة ... ايكون الغضب الذي

احسه انخذالا يتملق معنى من معاني التحدي ؟ ؟ ايكون النصف الباقي من حياتي ما زال ينتفض بشيء من الكبرياء الذبيحة ؟ ؟ أاكون ما زلت اعتقد انني كالآخرين ؟

هذه هي المشكلة ... أن استسلم ... ان اعترف .. ان استسلم .. استسلم .. هذا كل ما في المشكلة ... ولكنني ما زلت ارفض هذه البديهية ... اذ يبدو لي صعبا بعض الشيء ان اخرج من حياتي ، واراقبها من مقعد المتفرجين كأنني في سيرك ؟ ؟ لوجدت انه معمر متهدم ..

في الفترة الاخيرة اصبحت اتردد في رواية اية حادثة مخافة ان يرد فيبعث القرف في حلقي .. اما اذا كانت الحادثة طويلة فانني لا افكر في التكلم عنها على الاطلاق ...

كل تصرف يقوم به له جذور ، كل فكرة يقولها يحفظها منذ الأزل ... ورأسه عبارة عن شبكة رادار تعكس كل ما في العالم ، إلا نفسها ... واعتقد ان هذا هو السبب الأولي في انني لا استطيع ان اتخذ موقفا منه ... إنه دائما ليس هو .

١٩٦٠/ ١/ ٩

مرة اخرى سمعت حفيف ريش الملائكة ـ كما يقول سكير واشنطن ـ حينما رأيت الجبال تدور حول رأسي بصخب مخيف ثم احسست بالرمل ينسحق بين اسناني ...

كيف حدث ذلك ؟ انني لا انكر التفاصيل ، اما الزملاء فكل واحد منهم عنده جانب من القصة ... لقد ذهبت معهم الى رحلة تقع خلف الحدود ، وفي لحظة واحدة ، حوالى العاشرة ، احسست بقليل من الدوخان ولكنني لم ابال .. كنت قد اعددت عدتي من الصباح ولذلك فلقد استبعدت اطلاق ان يحدث لي اي اضطراب ...

بعد هنيهة قمت الى زميل اداعبه بضربة او بضربتين ، ولكنني حينما رفعت كفي عنه رأيت الجبال الصخرية التي كانت حولنا تدور برقصة مخيفة ، وعبثا حاولت ان اوقف رأسي عن اللف معها .. لقد كانت ، ثمة ، مطارق تهوي على مؤخرة عنقي ، وكانت الفكرة الوحيدة التي سيطرت على رأسي هي انني يجب الا اقع في الوادي ، فلو وقعت ، فمن الحتمي الا يستطيع الرفاق ايصالي الى فوق حيث سيارتنا ، الا بعد مشقة هائلة ووقت طويل .. وعبثا حاولت ان أسيطر على رأسي .. لقد انسحق كل شيء ، الا رغبتي في ان أصل الى فوق ، حيث السيارة ، بأي ثمن ...

ثم صحوت على السفح ، كان الرفاق يتبعوني لاهثين ، وكنت اطوي الصخور

صاعدا بكل ما في طاقتي من احتمال ... وحينما لامست عيوني سيارتنا هناك عاد الي غيثان قاس ، وصحوت مرة اخرى على طريق المستشفى ...

الا ان الذي حدث لم يكن هذا فحسب ، لقد سبق صعودي الجبل اغماء استمر اكثر من ربع ساعة ، قيل لي انني دفنت رأسي في الرمل ، وكانت يدي تشير الى الجبال بحركة لولبية ... بينما اخذ جسدي ينتفض بحيث عجز ثلاثة من رفاقي عن مسكه وتثبيته في مكانه ، كانت عيوني ، ايضا ، مفتوحة حتى اقصاها ، ولكنها عمياء ... وكفاي ينبشان الأرض بجنون ... لقد مسكوني هناك ، بعيدا عن كل شيء ، وحشروا قطعا من البسكوت في فمي ـ كنت اشكو نقصا في السكر ـ ورشقوا وجهي بالماء ... وقالوا انني حينما صحوت قليلا انطلقت اعدو فوق الصخور ميمما شطر السيارة البعيدة ، باذلا جهدا مسعورا كي اصل الى هناك ، في حين حسبوا هم انني ما زلت مشدودا الى اغماءة قاسية ...

وفي المستشفى كانت شفتي تنزف ولساني مجروحا ، لا ادري ، أهو البسكوت الذي دفع الى حلقي بقسوة سبب هذا ام انني كنت اعض على ارادتي كي أصل الى فوق ؟ اما في المستشفى فلقد اكتشفوا ان انخفاضا حدث في القلب ، وبذلوا جهدا طيبا من أجل اعادته الى ما كان عليه ..

حينما عدت منهوكا الى الاصدقاء كانوا ينظرون الي بشفقة ... وكنت انا احس انني أستحقها ... لأنني انا نفسي كنت أبكي في اعماقي ... أبكي بكل ما في طاقتي ...

١٠ / ١ / ١٩٦٠

أمس ، توفي الفيلسوف الوجودي ألبير كامو .. صاحب فلسفة العبث ، مات في موقف عبث ، واي رثاء له نوع من العبث ليس غير ... لقد انتهى ، وعليه ان يقنع بحياة عاشها عريضة ، وإن لم يستطع ان يجعلها طويلة ...

١٥ / ١ / ١٩٦٠

رأيته بأم عيني ... وحينما سرت القشعريرة في جسمي كان الـهأ ما صب على رأسي قارا مغليا رفعت كفي اغمض عيني حتى لا ارى اكثر ...

أكتب خائفا من ان يصفع المنظر اعماقي فيودي بما تبقى من كبريائي ؟ ... ام انني كنت لا أريد أن ارى كيف يذل الانسان نفسه من أجل ان يحتفظ بحياته ؟ .. كيف يناضل طفل بكل ما لديه من طاقة كي يصير كالآخرين ؟ ؟ كيف يسحق كبرياءه بارادته من أجل ان يعيش ؟ ..

كان ، في رأيي كما يلي : ـ طفل صغير صغير ، يتحدى إلها كبيرا كبيرا ... طفل قزم ، يشد عنقه المتوتر الى حضارة الخزي ، ويبصق في وجهها ... طفل تجثم على صدره كل اخطاء الرب ... ولكنه يدفعها باذلا جهده في ان يتغلب عليها ...

لماذا يتعذب طفل دون ان يخطىء ؟ ؟ إننا نعرف كيف ؟ ، ولكننا لا نعرف لماذا ؟ اليس هذا صحيحا ؟ ؟

بدأت القصة بانني وقفت على شرفة غرفتي اراقب مباراة في كرة القدم بين فريقين من اطفال الحي ... جمال المباراة كان في الجهد المبذول لا في مستوى اللعب ... بدا لي ، في لحظات ، ان العالم كله ، والله ، والحضارة ، لا معنى لها بالنسبة لهؤلاء الصغار سوى نتيجة هذه المباراة ... وهكذا كانت الدنيا كلها مخلوعة الى خارج طموح هؤلاء الصبية ، وكانت السعادة شيئا يمكن ان ينال بواسطة بذل الجهد فحسب ...

وفجأة برز بينهم ، كان يلبس سروالا اسود قصيرا وقد ارخى قميصه الطويل فوقه ، شعره كان مشوشا ، ووجهه يبتسم بعناد رجولي لا يتناسب وعمره ، كان صدره عريضا ، ولا يتناسب على الاطلاق مع تلك الساق التي كانت تشبه خيطا من القنب ، والتي كان ينقلها الى جوار ساق سليمة ، ينقلها مشوهة ، مرتخية ، نحيلة ، لينة ، مشلولة ...

وكان يركض بكل جهده ، عناد رجولي في وجه طفل ، كان يخجل ، نعم ، هذا اصح : رافعا ساقا سليمة ، متريثا على ساق كريهة ، مشلولة ، نحيفة كأنها ليست لهذا الجسد المتفجر بالحياة والجهد . وكان وجهه ، الى ذلك كله ، جميلا ..

أكان جميلا فعلا ؟ ؟ ؟ ... لماذا يتعذب الطفل بلا سبب ؟ ؟ كانوا يلعبون هناك ، صغارا ، باذلين جهدا خارقا كأن الحياة كلها لا تعني لهم سوى ان يصلوا الى نتيجة مشرفة ، او كانت كذلك فعلا .وكان هو بينهم ... وكانوا لا يعاملونه بشفقة او مجاملة ، وبدا لي انه كان سعيدا بذلك الى آخر حد سعيدا لانه اقنع نفسه للحظة ، بانه سعيد ! ! لماذا رفعت كفي الى وجهي واخفيت هذا المنظر عن عيني ؟ .. الأنني عرفت

كم هو كبير وكم أنا صغير ؟ .. الأنني عرفت كم يناضل الانسان من اجل ان يجعل حياته اكثر معنى واكثر جمالا ؟ ام لأنه لم يرق لي ان يبيع الانسان كل حياته في سبيل لحظة كرامة واحدة ؟ ..

لماذا ؟

١٩٦٠/ ١/ ٢٣

قررت اليوم ان ابدأ بكتابة قصة طويلة ، (سوف تكون أقل طموحا من (كفر المنجم) التي كتبتها في العام الفائت وفشلت) ، لانني سوف احكي فيها قصة إنسان فرد ... واعتقد انها لن تستغرق وقتا طويلا ... وفكرتها في رأسي منذ زمن بعيد : الخذلان . سوف لن استشير احدا فيها اذ انني وجدت أن انسب مكان للآخرين يفرغون فيه أحمال عقدهم النفسية هو الثغرات المفتوحة في نفوس القلقين .

١٩٦٠/ ٢/ ٦

بلادة وخمول ولا شيء غير هذا على الاطلاق .. هنا ، في هذا البلد المصرور في الجمود والصمت نموت رويدا رويدا دون ان نعرف كيف يعيش اي انسان ناضل قرونا طويلة في سبيل لحظة طمأنينة واحدة ! .. صور الفتيان معلقة على الجدران تستنل رجولتنا ، والموسيقى الحزينة تمتص احاسيسنا ، وكلمات المجاملة الكانبة تهدهد طموحنا ... الى اين ؟ لسنا ندري ! كيف ؟ لسنا ندري ... كل ما نعرفه هو ان غدا لن يكون افضل من اليوم .. واننا ننتظر على الشاطىء ، بلهفة ، سفينة لن تأتي ... وبأنه حكم علينا بأن نكون غرباء عن كل شيء .. سوى عن ضياعنا ...

إنني لست راغبا في اي شيء .. كل الاشياء التي اعتقدت انني احبها فقدت معناها تماما ... لست احسن التصرف مع الاصدقاء ... ولست راغبا في الاستمرار اكثر داخل هذه الدوامة التي تدور كساقية مجنونة تفور في رمال صحراء عطشى منذ آلاف السنين ..

أصحيح ان عمري خمس وعشرين سنة ؟ ؟ انني اتصور احيانا انني عجوز متهدم ، ينتظر بصمت واستسلام دفة من الخشب ينقلونه فوقها الى استقراره الأخير .. او الى استقراره الحقيقي ...

١٩٦٠/ ٢/ ٢١

كتبت اليوم رسالة الى (...) و (...) كانت قصة حب بلا شك .. اما الآن فهي مأساة .. إن رسائلها الأخيرة لي كانت تحمل طابعا خاصا .. كأنها كانت تريدني ان اقول موقفي بوضوح كي تعرف ماذا يتعين عليها ان تفعل .. وهذا حقها بلا ادنى شك . لقد كتبت لها رسالة اليوم حاولت فيها ان اكون مخلصا لها ولنفسي ، وحينما قراتها بعد كتابتها اكتشفت بوضوح انني فعلا احبها .. سوف انقل الى هنا بعض مقاطعها ..

« ... انا مشوش جدا .. لذلك تبدو افكاري مهزوزة ... والذي يشوشني خبر زفه الطبيب الي ظهر امس .. لقد بدأ هذا القلب المسكين يتعب .. انه يخفق بلا جدوى .. وحينما انظر الآن الى الاشياء احس بانني خارجها .. انها مسحوبة من المعقول ... انني لا اخاف من الموت ، ولكنني لا اريد ان اموت .. لقد عشت سنوات قليلة قاسية وتبدو لي فكرة ان لا أعوض فكرة رهيبة .. انني لم اعش قط .. لذلك فأنا لم اوجد .. ولا اريد ان اغادر دون ان اكون ، قبل المغادرة موجودا ... اتعرفين الذي اعنيه ؟ ؟ ... إن شعوري غريب جدا .. شعور انسان كان ذاهبا الى مكان ما كي يتسلم عملا ملائما ، فمات ــ فجأة ــ في الطريق ..

إن شعوري الآن هو هذه « الفجأة » بالذات ...

... لقد فكرت طويلا طويلا في رسائلك الاخيرة .. ووجدت انك على مطلق الحق في موقفك .. ولكنني انا الآخر املك شيئا منه لماذا لا نضع النقاط على الحروف جيدا ؟ لماذا لا نعترف باننا « خطان متوازيان يسيران معا ولكنهما لن يلتقيا .. ؟ » لقد كتبت هذا الكلام لي منذ اول تعارفنا ، وكنت وكنت في اعماقنا نرفضه على الاطلاق ! . ايتها الغالية .. لماذا قدر للانسان ان تكون اعمق جروحه تلك التي يحفرها بيده ؟ . تريدين ان اكتب لك بوضوح ان اكفن سرابي بيدي واستمر بضياع بلا قاع ؟ سألت في رسالتك الاخيرة : « هل مات الداتشمان ؟ » انني اعتقد انه مات منذ رأى باندورا لا يستطيع ان يأخذها معه عبر المحيط الى السعادة .. وكل الذي كان بعد لقائهما هو محاولة مستميتة لنسيان هذا الموت .. بالاقتراب منه اكثر فاكثر ...

اعرف انك غضبى .. ولكن الغضب شيء يذهب .. اما الخذلان فيبقى .. انا رجل مخذول . هل تستطيعين ان تحسي اعماق هذه الكلمة ؟ كل الوحشة والغربة

والضياع التي تعشعش فيها ؟ . الخذلان لا يذهب .. اما الخذلان الذي يصنعه الانسان بيديه فانه ينمو .. ينمو حتى يصبح غولا ..

لتحاولي ان تنسيني .. انا لا استحق ذكراك عني ، كوني متأكدة من ذلك .. انت تملكين الأمل والألوان والحياة والذكاء والجمال .. فلماذا تتمسكين بانسان لا يملك سوى سواد قدره ؟ حاولي ان تنسي .. او حاولي ان تصعدي ـ واصر على هذه الكلمة ـ ان تصعدي ذلك الحب الى صداقة .. انا لن احاول شيئا ، سوف ارقبك وحينما اراك سعيدة .. سوف اشعر بانني لست سببا في تعاسة انسان احبه .. احبه رغم كل شيء .. كوني متأكدة انني لا اعتقد انك سبب تعاستي .. لقد شغلت ثلاث سنوات من حياتي بأمل لم انق مثله كل عمري .. وهذا يكفي في عالم لا يعطي المقابل ..

آه يا عزيزتي لو استطعت فقط ان امزق هذه الرسالة واكتب لك واحدة اخرى اكثر اشراقا .. آه لو استطعت .. ولكنني اعرف انني لا أستطيع .. إن الذي يستحق التمزيق هو حياتنا جميعا ..

« آه لو استطعت ايها الحب ان نتفق انا وانت والقدر

على تمزيق هذا الطابع الحزين للعالم

الى قطع صغيرة صغيرة ..

ثم نعيد بناءه ... كما تشتهي قلوبنا ! »

اتذكرين القصة ؟ قصة « باقة ورد على ضريح الخيام » ؟ لقد أوحيت الي بها .. ولكنني اوحيت لنفسي نهايتها حينما كتبت :

« شعر بأن لم يخلق ليلى ابدا .. بل انها هي التي خلقته ، وراوده احساس طاغ بانه لم يكن يستحقها على الاطلاق .. »

المخلص .. »

لقد كانت رسالتها لي امس فيها بعض الحياة .. ولهذا فأنا اتصور جيدا كيف سيكون وقع هذه الرسالة على رأسها والا انني اتفاءل ان تجد طريقا للخروج .. إنها مؤمنة بأن السعادة موجودة في مكان ما .. ولهذا فهي ستواصل البحث عنها ... وسوف تنساني .. لقد كتبت لي :

« انني افتقد رسائلك بشكل مخيف .. فانت تكتب ببراعة وبعمق ـ حتى ما تؤلمني به .. ولقد آليت على نفسي الا اجد في المستقبل سوى انسان يكتب بمثل براعتك ... عندما انظر الى صدر المسيح ، في الصورة ، احس بك تلفح وجهي .. واحس بنفسي تغرق في الابحار من الحب مع الداتشمان .. الا اخبرني بالله عليك هل سات ؟ هل مات ؟ هل تاه الداتشمان ؟ » .

كتبت منذ يومين قصة « الخراف المصلوبة » وهي الفكرة التي كانت في رأسي عن « الخذلان » .. بدوي يقف في شمس الربع الخالي ينتظر من يعطيه ماء لأجل خرافه .. ولكن القافلة التي تمر من سيارات الحجاج ترفض اعطاءه ماء بسبب حاجة السيارات له ، اما البدوي فلا يستطيع ان يفهم كيف تكون السيارة اثمن من الخراف ..

لقد قصدت الى ابراز شعور الانسان المخذول الذي تتهاوى قيمه العليا ومثله بسرعة وهدوء .. وحاولت ان ابرز مدى اهمية هذه القيم في نظر هذا الانسان المتفرد بحوار هامشي على لسان طبيبين في القافلة :

« ـ انظر .. ها نحن ذا امام اسطورة اسبارطية من جديد .. الرجل والاله في مكان واحد .. ترى ماذا يفعل هنا ؟ ؟

ـ يتعبد ... »

وحاولت ايضا ان ابرز المشابهة في الصورة : قافلة حجاج تحمل للانسان الاله خذلانه ...

واعتقد انها قصة ناجحة ..

٢٢ /٢ /١٩٦٠

كتبت الى صديقي فضل النقيب في ياكيما ـ واشنطن اليوم : « تأخرت في الكتابة لك ، انا اعترف ، ولكن يشفع لي ان لا جديد عندنا هنا سوى استمرار هذه العجيبة : ان لا يكون اي جديد ... »

ثم كتبت له ارد على لمحة استسلام شعرت بها بين سطور رسالته : « تريد ان تنسحب ؟ لماذا ؟ لأنك بعيد ؟ اذا كان فضل يبعد عن القضية الف ميل فنصف شعبه يبعد عنها الف سنة ! .. المسافة لا قيمة لها لمن يعيش في لحظة الشروق ... تريد ان تنسحب ؟ لابأس ، ولكن صدقني يا فضل ان الانسحاب اصعب بكثير جدا من التحدي ... لقد حكم علينا بان لا ننسحب ... »

وكتبت الى عدنان ، صديقي السجين الذي كتب الي يقول انه لا يعرف اذا ما كان د تغير خلال مدة سجنه ، فهو لا يملك مقياسا ولا يعرف كيف تغيرت الاشياء وتغير لآخرون .. كتبت له:« انت نفسك تعرف انك تغيرت ، لأنك تعيش من اجل ذلك ... إننا ' نحتاج للآخرين كي نعرف اننا تغيرنا ... نحتاجهم فقط كي نعرف كم هو ضروري غيرنا ... »

الواقع لم اكن افكر بنشرها ، ولا في جعلها قصة كاملة .. ان هذا كله دخل يها ، الا اني اعتقد ان شعوري تجاهها بالضبط قد تحدد خلال كل تلك الاحداث ... هو الشعور الذي عبرت عنه ــ قبيل اسطر ــ بكلمتين : « لست ادري ! »

١٧ / ١ / ١٩٦١

كتبت امس قصة جديدة : «المجنون» .. وانا اعتقد ان بناء قصة من هذا الطراز مل صعب للغاية .. لقد كانت فكرتها كاملة في رأسي تقريبا .. ولكن المشكلة هي شكلة الجمل العابرة ، والمفروض ان تكون عابرة في السياق الى حد عادي جدا ، والتي ترتب على قوتها كل ما يمكن ان تعطي القصة من تأثير مقصود .. والمشكلة كانت في ان هذه الجمل لا يمكن ان تكون شيئا معدا سلفا ، ولا بد ان تكون من وحي اسلوب القصة نفسه ، وطريقة اداء الحادثة .. وهكذا فان جو كتابة القصة هو وحده المسؤول عن خلق تلك الجمل .

لقد كتبتها على دفعتين ، ومعظم الجمل العابرة الموحية كانت من حظ الدفعة ثانية .. واعتقد انها ليست بحاجة لأن تكتب مرة ثالثة .. اذ ان اهم ما فيها ــ في رأيي ــ هو سهولة السياق ، وعفويته ، وبساطة التفكير .

كتبت القصة من داخل المنطق الخاص المجنون هذا ، وهو نموذج لم اقرأ عنه ــ ن هنا كانت صعوبة قصور منطقه المتسق ــ بل اني اشك في انه « مجنون واقعي ولقد صدت ذلك قصدا .. لأن « خلق » مجنون اصعب ، في رأيي ، من « دراسة » جنون » .

أفكاره تعتمد على تداعي الافكار العفوي .. وهي أفكار لا علاقة لها ببعضها الا قدار ما توحي كل جملة بمطلع ما بعدها .. وهكذا فلقد كان من الضروري ان تكتب جمل قصيرة ، واضحة ، وسخيفة من حيث التركيب الفكري .. واعتمدت ــ ايضا ــ ى نقطة هامة : المجنون هذا يفترض انه كان سيئا ، وبائسا ، وغير موجود قبل ان

يجن .. والى ذلك ، فهو يعترف ـ دون ان يواجه اعترافه مباشرة ـ بالسبب الرئيسي الذي دفعه الى الجنون .. وهو حينما يقترب في ذاكرته من حادثة يكرهها يحاول ان يتصور انها حدثت مع آخرين ، وربما حيوانات ، ولكنها لم تحدث معه ..

ووراء كل ذلك كان لا بد ان اضع الخلفية الباهتة ، ولكن الضرورية ، التي تتحكم هذه الايام بكل ما اكتب وهي : اين يوجد الصحيح ؟ من هو الذي على صواب ؟ ما الفائدة من كل شيء ؟ والفكرة الهامة التالية وهي ان القلب الانساني ـ مجنونا او وضيعا او نبيلا ـ لا بد ان يحمل كل صفات الانسان هذه ـ الجنون والضعة والنبل ـ معا ، والفرق بين انسان وآخر هو الفرق في الكمية التي يحملها من تلك الصفات .

١٩٦١/ ٢/ ٥

يبدو لي كأنما الرحلة القصيرة على وشك ان تنتهي ... وأحس نهايتها احساساً مباشراً كريهاً .. عشت اليوم ساعات مقطعة اتصور الآن ان ساعات بعض هذا النهار كنت فيها ميتاً فعلا ... اني ارتجف ، لسبب لست أدريه ، وفي نفس الوقت ، أفكاري ترتجف كما لو انها جسر ينتفض باحتضار غريب .. أفكاري كانت اليوم شيئاً يشبه شريط تسجيل رطب ممسوح ، عفواً ، في بعض نواحيه .. وهكذا فانه يمر فوق انقطاعات صامتة ، قصيرة ، ميتة .. ورغم كل ذلك ، فهي موجودة بشكل ما ..

اي شيء كريه ان يموت الاسنان ! والأبشع ان يكون جسده هو السبب .. في الاسابيع الاخيرة كنت افكر بصورة تثير ضحك بعض من اعرف .. ذلك اني كنت عائدا الى البيت في منتصف الليل ، كان الشارع خاليا الا من اعلانات مضيئة : تنطفىء ، وتشتعل برتابة .. حمراء ، وخضراء ، وبيضاء .. وفجأة فكرت : ان المأساة كلها ، هو انه عندما اموت سوف تبقى هذه الأعلانات تضيء وتنطفىء ، وسوف يبقى مصعد بيتنا يلبي كلما ضغط احدهم على الزر ، واشيائي كلها سوف تباع ، لينام عليها ، وليستعملها انسان آخر .. والمجلة التي اعمل فيها سوف لن تكف عن الصدور .. وسوف يرن جرس الهاتف ، ويجيب احدهم : « انه مات » ثم يضع الآلة السوداء ، ويفكر في غدائه ...

لقد بدت لي الافكار هذه راعبة بصورة جارحة .. وارهقتني فكرة ان اموت ... ان انتهي ، ويستمر كل شيء ...

الرحلة لن تطول كثيرا .. هذا هو الشيء المؤكد لدي الان ... ما الذي يحدث في جسدي ؟ اي شيطان ينيب بناء اسطورية كل جوفي ؟

٢٤ /آب /١٩٦٢

قبل منتصف الليل بساعة ونصف ولد فائز ...

وحين هتفت الممرضة تقول مبروك احسست به ، فائز ، يقع فوق كتفي .. ولدى لحظات احسست بشيء يشبه الدوار ، وفي صخب المشاعر التي كانت تجتاحني احسست بانني مرتبط اكثر بهذه الارض التي امشي عليها ، كأن وقوعه فوق كتفي قد غرسني عميقا في التراب ..

وفي الصبح حملته الممرضة وعرضته امام عيني من وراء الزجاج ، وبدا لي قطعة لحم حمراء غبية ، مغلقة العينين مفتوحة الفم راعشة الكفين .. عينان امامهما الكثير لترياه .. وفم عليه ان يمضغ طويلا ، وكفان لا يدري احد أهما للعطاء ام للاخذ ام لكليهما ؟

قال لي الطبيب الواقف الى جانبي :

ـ ما هو شعورك ؟

ـ لا شعور لدي ..

ـ ابدا ؟

ـ ابدا ..

كأنني كنت اقول لنفسي أن في الوقت متسع لملايين من المشاعر ، متسع للغضب والفرح والمفاجأة والخيبة والسعادة والشقاء والضحك والاسى والحب والكره والانتظار والملل .. ملايين من اللحظات المترعة بغزارة كل ما في هذه الارض من تناقض .

وفي الغرفة الاخرى كانت امه ملقاة فوق الفراش ، لقد نسيت كل الالام التي جترعتها في سبيل ان يولد ، نسيت كل الدموع التي اهرقتها في العشرين ساعة لماضية ، نسيت كل شيء .. كأن الحب الجديد الذي ملأها فجأة ، حين قالوا لها انها ضعت ، الحب الغزير الذي لا يمكن ان يحمله انسان لانسان إلا الأم لابنها .. كأن ذا الحب قد غسل كل شيء بيد اسطورية ..

وبينهما ، هو بين يدي المرضة وراء الزجاج ، وهي في سريرها غير قادرة على ان تخطو لتراه معي ، كنت اقف انا مغسولا بالحب والخوف ، صاف كأنني من زجاج .. ليس ثمة اي شيء افكر به او اهتم له ، مجرد رجل يقف مثل ملايين الرجال الذين لا يعرفون حقيقة المستقبل ، العاجز الضئيل الصغير أمام المجهول الذي يطوقه بزوجة يريد ان يعطيها ماء عينيه وولد يريد ان يهبه نبض شرايينه .. واقف هناك كما لو أنه المشاعر الجدير بان يحملها اثقل من ان يحملها فتركها تحوم حوله كهواء له صوت وله رائحة وله ثقل ، تمسه كما تمس الحجر وتغوص في كيانه حتى ليجهل اهو الذي نفثها ام هي التي نفثته ..

وحين انامته المرضة من جديد خطوت عائدا الى غرفة زوجتي .. ولكن ما ان سمعت صوت خطواتي حتى عدت الى عالمي ، عالم بعيد مطوق بشيء اسمه حب حقيقي .. حب لا الزام فيه ولا جزاء .. حب لذاته ، بلا تعويض بلا ثمن بلا خوف ، حب صاف لم احس به ابدا من قبل ، ابدا ابدا ، حب لذلك الطفل الذي ولد مني ، بسببي ومن اجلي وكان ثمنه حبي لها ، وحبها لي ، ليس غير .. حب لا غاية له ولا هدف ، حب مترع العطاء ، يطوف في صدري حتى احسه يسكب في جسدي كما لو أنه ينضح ندى فيبعث في فرحة اللقاء الحقيقي الذي لم يلوث بعد بتعقيدات الحياة ، بقانون خذ وهات ، وقانون انت وانا ، وقانون اين ولماذا وكيف .. مجرد عطاء محض غير مشوب بأي سؤال او طلب او انتظار او تلكؤ او تردد .. مثل ماذا ؟ مثل لا شيء ، مثل ذاته ليس غير .. لو قدر لنبعة الماء ان تحس ، اذن لاحسّت ذلك الشعور ، العطاء المحض الذي يخلق من جديد كلما شرب عابر من مائها ..

وحين نظرت في عيني « آني » فهمتهما ، ولست ادري لماذا اوشكت ان ابكي ، بل انني احسست بالدموع تطوف في حلقي مثل الغصة .. وبذلت كل طاقتي لاقول اي شيء ، عبث .. لم يكن في لساني الا ذلك التساؤل الغبي : اذا اعطيتم الطفل حق البكاء حين يولد ، افلا تعطوني هذا الحق حين اولد انا بولادته ؟ اليس كل الايام التي خلفتها وراء ظهري ذابت الان ؟ الا يحق لي ان افعل كل الذي اشاء وقد عثرت على قطعة السكر في قاع الكأس الذي اجترعت مرارته كل شبابي ؟؟

ولكنك كنت وراء الزجاج يا فائز ، بيني وبين لمسك مثل ما بين اليوم واليوم .. نائم هناك في غطائك الابيض ، تعني للمستشفى رقما مربوطا الى زندك ليميزك من بين عشرات المواليد الذين يشاطرونك الغرفة .. اما بالنسبة لي فانك تعني الحياة المزدوجة ، حياتك ، وحياتنا : امك وانا ..

اوتدري متى بدأت افكر بك ؟ اقول افكر بك وقد احسست بك كل الوقت ؟

حدث ذلك حين دخلت الممرضة لتأخذ امك الى غرفة اخرى :

ـ لماذا ؟

لان هذه الغرفة خاصة بالدرجة الثانية ، واريد ان آخذ زوجتك الى غرفة الدرجة الاولى ..

ـ ولكنها مسجلة في الدرجة الثالثة !

ـ الثالثة ؟ اوه ، عفوا اذن ، لقد حسبت انها مسجلة في الدرجة الاولى ..

عندها فقط جعلوني احس بانني فقير .. وباننني لن اعطيك الحياة التي يستطيع غيري ان يعطوها لابنائهم .. ولان هذا كله قد يعني لديك ـ غدا ـ شيئا ..

لا تحسب انني اريدها ان لا تعني لديك اي شيء .. الامر لا يتعلق بك ، انه يتعلق بي انا فقط .. لست اريد ان يشوب عطائي اي ندم ..

انا ، يا فائز ، لا اطالبك بحق الابوة في المستقبل .. هذا الحق الذي لا قيمة له اذا طالب المرء به ، انما اطالب نفسي بحقك علي ، وهذا هو كل شيء عندي الان .. لقد اكتشفت الان فقط ان كل شيء سيبدو تافها لو طالبتك بان تعوض لي سعادتي بابوتي لك .. ولكنني لن اغفر لنفسي تقصيري بالمضي في هذه السعادة حتى آخر الشوط ، بلا مقابل ، بلا تعويض ، هذه قضيتي انا ... أتعرف معنى هذا ؟

.. وانا اخرج من غرفة أمك عرفت ايضا معنى الهم .. نلك العبء الذي يثقل اكتاف الرجال لأنه ينبع من الداخل ، عميقا من الداخل ، والذي يعطي الحياة نلك الحافز النبيل الذي يفتقر اليه رجل لا يعرف معنى العبء الذي ينبع من الداخل ..